الشرقُ والغَرْبُ والتَّقارُب المأمُول

أنْدرِيَا رِيكاردِي(*)

الشَّرقُ والغربُ مصطلحانِ يُثيرانِ الذِّكرياتِ، وليسَ أمرًا بسيطًا أن نحدِّدَ حدودَهما، حتَّى لو كانَت هناك إمبراطوريَّاتٌ في الشَّرقِ وفى الغربِ، فليسَ مِن السَّهلِ تحديدُ ذلك؛ فكلٌّ منهما موجودٌ باعتبارِهما عاملَينِ مُستقلَّينِ.

إنَّهما واقعانِ عظيمانِ في التَّاريخِ، وجدناهما موجودانِ في إدراكِ الأشخاصِ، وفى حياةِ الشُّعوبِ، واقعانِ حقيقيَّانِ مِن الممكِنِ تحديدُهما كإقليمَينِ مِن ناحيةِ حدودِهما، رَغمَ أنَّ الغربَ أكثرُ اتِّساعًا مِن قارَّةِ أوروبَّا ومِن الأمريكيتَينِ؛ فإنَّ الشَّرقَ الَّذي نراهُ اليومَ ربَّما يكونُ واحدًا مِن المشارقِ إلى جانبِ الهندِ والصِّينِ والعوالِمِ الأسيويَّةِ، والإسلامُ أكثرُ اتِّساعًا مِن الشَّرقِ العربيِّ الإسلاميِّ، في الشَّرقِ العربيِّ الإسلاميِّ يوجدُ أيضًا المسيحيون.

الشَّرقُ والغربُ موجودانِ، إنَّهما عبارةٌ عن ثقافاتٍ، وحضاراتٍ، وعوالمَ، ويتلاقيانِ فيما بينَهما، وبما أنَّه يمكنُ الحديثُ عن شرقٍ داخليٍّ في الغربِ نفسِهِ، أو عن عمليَّةِ تعريبٍ لبُلدانٍ شرقيَّةٍ، لكن كثيرًا ما يُمكِنُ القولُ فيما يخصُّ التَّاريخَ والتُّراثَ، والثَّقافةَ الخاصَّةَ بهذينِ العالَمينِ، فالمكتباتُ فيهما مُكتظَّةٌ بالدِّراساتِ القديمةِ والحديثةِ على السَّواءِ.

نجدُ اليومَ عالَمينِ يتواجهانِ: الغربُ الأوروبِّيُّ والعالَمُ الشَّرقيُّ العربيُّ الإسلاميُّ، يتبادلانِ الحديثَ، وتوجدُ اليومَ مُستجِدَّاتٌ عظيمةٌ، لابدَّ للعالَمَينِ الغربيِّ والشرقيِّ أن يَحسُبا لها الحِساباتِ.

إنَّ التأكيدَ على العالَمِ الكونيِّ -أي العولمةِ- وضَعَ الهُوِيَّاتِ والقوميَّاتِ والأديانَ والحضاراتِ محَلَّ النِّقاشِ، ومنذُ حِقبةٍ مِن السَّنواتِ ونحنُ في عمليَّةِ تغييرٍ جِذريَّةٍ، والَّتي يَضَعُها الجميعُ محَلَّ النِّقاشِ، وهي تتخطَّى الحدودَ، وتعيدُ تقييمَ الهُوِيَّاتِ التَّقليديَّةِ المكتسَبةِ.

الكثيرون كانَت ردودُ أفعالِهم خاطئةً، انفعاليَّةً، تتَّسِمُ بالصِّراعِ ضدَّ العولَمةِ، وكلُّ ردودِ الأفعالِ تتماثلُ في أنَّها قد جاءَت مِن الاغترابِ النَّاتجِ عن فتحِ الآفاقِ الكونيَّةِ.

وقد ولَّدَت تفسيراتُ التَّاريخِ الَّتي ربَّما تَرغَبُ في وضعِ ترتيبٍ فكريٍّ وسياسيٍّ جديدٍ كما هو قائمٌ الآنَ مِن أوضاعٍ وأحداثٍ، فهناك نظريَّةُ صراعِ الحضاراتِ، والَّتي تَرى أنَّه مِن غيرِ الممكِنِ تَحاشي الصِّراعِ بينَ الغربِ الأوروبِّيِّ والعالَمِ الشَّرقيِّ الإسلاميِّ، ليسَ فقطَ هو اختراعُ الباحثِ الأمريكيِّ صمويل هانجتينون، لكنَّه اختيارٌ شائعٌ جدًّا بقدرِ ما هو مُرعِبٌ ومستهان به.

هذه النَّظريَّةُ وجَدَت نجاحًا ليسَ فقط في بعض الأوساطِ الغربيَّةِ، ولكن أيضًا في بِيئاتٍ إسلاميَّةٍ، والَّتي غَذَّتِ التَّفسيراتِ العدائيَّةَ والإرهابيَّةَ للإسلامِ.

مِن هذا المنظورِ، ربَّما تُوجِبُ على البحرِ المتوسِّطِ أن يتحوَّلَ إلى بحرٍ تسودُهُ حربٌ باردةٌ جديدةٌ بينَ الشَّرقِ الإسلاميِّ والغربِ الأوروبِّيِّ؛ أي حربٌ باردةٌ بينَ الإسلامِ والمسيحيَّةِ، أو بينَ الإسلامِ والغربِ، تقريبًا وكأنَّنا نَستدعي أُنموذَجَ الماضي بذاتِهِ، ونقدِّمُهُ كأُنموذَجٍ للمستقبَلِ، ونعتبرُهُ تعبيرًا واضحًا عن طبيعةِ العالَمَينِ الشَّرقيِّ والغربيِّ، طبيعةِ الدِّيانتَينِ وطبيعةِ الثَّقافتَينِ، باختصارٍ: إنَّه صراعٌ بينَ الحضاراتِ، بينَ الشَّرقِ والغربِ، صراعٌ لا يُمكِنُ تَحاشِيهِ.

هذا ليسَ شعورَنا، بل لابدَّ أن نَفزَعَ مِن سُوءِ الفَهمِ المُتبادِلِ، والَّذي يُسوِّغُ أخلاقيًّا التَّباعُدَ بينَ الطَّرَفَينِ، والكراهيةَ وأعمالَ العُنفِ.

نظريةُ الصِّراعِ والسِّياساتُ المترتِّبةُ عليها مَلأَتِ العالَمَ بالرُّعبِ وبالكوارثِ، فقد أصبحَ البحرُ المتوسِّطُ بحرًا مليئًا باللِّقاءاتِ الكثيرةِ، وأيضًا بالآلامِ الكثيرةِ.

أفكِّرُ الآنَ في اللَّاجئِينَ الفارِّينَ مِن سوريا، ومن بُلدانٍ إفريقيَّةٍ مُختلِفةٍ، لا يجبُ أن يكونَ البحرُ المتوسِّطُ بُحيرةً تَسُودُها حربٌ باردةٌ جديدةٌ، وهي لم تَعُد كما كانَت تلك الحربَ الباردةَ بينَ الغربِ والعالَمِ الشُّيوعيِّ، لكنَّها الآنَ هي حربٌ بينَ الغربِ والإسلامِ.

أصبحَتِ النَّظريَّاتُ اليومَ ممارسةً عمليَّةً للحربِ، وهذا الأمرُ يَفرِضُ علينا ضرورةً ملحَّةً؛ ألا وهي التَّقارُبُ فيما بينَنا، والتَّحدُّثُ فيما بينَنا، وأن نَنوِيَ احترامَ الاختلافاتِ.

ربَّما كنَّا فيما مَضى سَلبيِّينَ جدًّا في مواجهةِ مَن قامُوا بهدمِ الجسورِ؛ جسورِ الفواصلِ، ومَن بَذَرُوا بَذرةَ الخوفِ والرُّعبِ، وتنبَّئُوا بالكراهيةِ.

كما اتَّسَعَتِ المسافاتُ بينَ الشُّعوبِ وتباعَدَتِ النَّشاطاتُ، ومِن المؤكَّدِ أنَّ هناك فَجَواتٍ بينَ الغربِ الأوروبِّيِّ والمَشرقِ الإسلاميِّ، تحتاجُ إلى مُعالجةٍ، وهي أيضًا ثِمارُ العَلاقاتِ السِّياسيَّةِ والاقتصاديَّةِ الَّتي لم تُستغَلَّ في حِوارِ الثَّقافاتِ والحضاراتِ، إذا لم تَنمُ لغةُ الثَّقافةِ فكيف لنا أن نفهمَ نظامَينِ مختلِفَينِ؟

وتُعَدُّ هذه هي الزِّيارةُ الأُولى لأوروبَّا لفضيلةِ الإمامِ الأكبرِ أحمد الطَّيِّبِ، والَّتي سيُمثِّلُ فيها المقعَدَ الأوَّلَ لأكبر مرجعيَّةٍ في العالَمِ الإسلاميِّ، والَّتي تمتدُّ سيادتُها إلى ما هو أبعدُ مِن مصرَ، الأمرُ الَّذي استطَعتُ أن أَلمسَهُ أثناءَ المؤتمرِ، حيثُ قد شرح لي فضيلتُه منهج الأزهرِ القائم على التَّعدُّدِيَّة والانفتاح على الإنسانية كلِّها، وكما تُعَدُّ هذه الزِّيارةُ الأُولى في التَّاريخِ، والَّتي يزورُ فيها

فضيلةُ الإمامِ الأكبرِ إيطاليا، فإننا نأمَلُ أن تكونَ فاتحةَ خَيرٍ للكُلِّ فيما يُستَقْبَلُ من الأيَّامِ.

وهذه الزيارةُ بالنِّسبةِ لنا لها دَلالةٌ مُهمَّةٌ، تُبرِزُ الرَّغبةَ في الحديثِ معَ بعضِنا البعضِ، وعلى المستوى الشَّخصيِّ، فالإمامُ الأكبرُ هو صديقٌ لي، وهذا لا يَدَعُني أَتغافَلُ عن معنى هذه الخُطوةِ الكبيرةِ مِن فضيلتِهِ.

هناك نقصٌ في اللِّقاءاتِ والحِواراتِ، تحتاجُ إلى مُعالجةٍ، ليسَ فقط على مستوى النُّخبةِ، وإنَّما على مستوى تلك الحواراتِ الَّتي تُنمِّي رُوحَ المودَّةِ بينَ الشُّعوبِ، والَّتي تمثِّلُ المحرِّكَ لحوارٍ يَوميٍّ بينَ النَّاسِ والتقاءِ الحضاراتِ؛ ومِن ثَمَّ يجبُ أن يَستثمِرَ رُوحَ المودَّةِ، والحوارِ، والالتقاءِ، وحولَ نقاطِ التَّواصُلِ بينَ الثَّقافاتِ والحضاراتِ.

مِن أجلِ ذلك؛ فإنَّ جامعةَ الأزهرِ ومؤسَّسةَ «سانت إيجيديو»، يَمُدَّانِ جُذورَ التَّواصلِ بينَ عالَمينِ وحضارتَينِ مختلِفتَينِ، ولقد تحدَّثُوا في موضوعاتٍ حضاريَّةٍ.

وليسَ مصادفةً أنَّه قد تمَّ اختيارُ مدينةِ «فلورنسا» مقرًّا للمؤتمرِ، وأتفضَّلُ بالشُّكرِ لرئيس بلدية فلورنسا السيد «داريو ناريلا» على تَرحيبِهِ الوَدودِ وعلى المشاركةِ.

وتُعَدُّ «فلورنسا» ومَعالِمُها وحضارَتُها شاهدًا حيًّا على حِقبةٍ مُبدِعةٍ جدًّا في الغربِ، مِن الإنسانيَّةِ في فلورنسا نشأَت البدايةُ لجزءٍ كبيرٍ مِن الحضارةِ الغربيَّةِ الحديثةِ، بالإضافةِ لذلك، في العصورِ الحديثةِ -أعتقدُ في خمسينيَّاتِ أو ستينيَّاتِ القرنِ الماضي- فلورنسا كبلدةٍ ومحافظةٍ (في نفسِ هذه القاعةِ التَّاريخيَّةِ) كانَت قلبَ أُولَى الحِواراتِ الحضاريَّةِ للبحرِ الأبيضِ المتوسِّطِ، والَّتي أَطلقَها المُحافِظُ «جورجيو لاپيرا».

ولقد كانَت أُولَى الحِواراتِ الحضاريَّةِ في القرنِ العشرينِ، بفضلِ الحَدْسِ العبقريِّ لمحافظِ «فلورنسا»، حيثُ إنَّه يَتوجَّبُ أن يُصبِحَ البحرُ الأبيضُ المتوسِّطُ بُحيرةً للسَّلامِ والالتقاءِ، كانَ ذلك اعتقادَ «لاپيرا» منذُ نصفِ قرنٍ مَضى؛ أنَّ هناك حاجةً إلى النَّزعةِ الإنسانيَّةِ الكونيَّةِ.

وأمَّا عنِ اعتقادِنا اليومَ في العالَمِ أجمعَ، تُوجَدُ الإنسانيَّةُ -ولكن في زمنٍ معَ الأسفِ تَسودُ فيه الهمجيَّةُ- حتَّى وإن كانَت في البحرِ الأبيضِ المتوسِّطِ وحدَه.

إنَّ الحوارَ يتطلَّبُ الخروجَ مِن عالَمِنا الخاصِّ إلى الالتقاءِ معَ الآخَرِ، وكما هو الحالُ اليومَ في مجتمعٍ صعبٍ، فإنَّ كلَّ المجتمعاتِ الثَّقافيَّةِ والحضاراتِ تميلُ إلى الانطواءِ والانغلاقِ والخوفِ مِن المغامرةِ في شِعابِ العالَمِ.

إنَّ أوروبَّا على مدى تاريخِها الطَّويلِ، قد تعرَّفَت على عصورٍ مِن خارجِ مجتمعاتِها، ولقد كانَ في الماضي، غالبًا ما يحتوي معنى التَّعرُّفِ على الآخَرِ معنى السَّيطرةِ، والاستعمارِ، والهيمنةِ، فهل مِن الممكِنِ أن يُوجَدُ توجُّهٌ إلى الآخَرِ بمنطلقٍ جديدٍ مِن قادَتِنا؟

كانَت أوروبَّا على مدارِ تاريخِها الطَّويلِ أرضًا للحروبِ بينَ الأوروبِّيِّينَ أنفسِهم، ومعَ ذلك فقد تحقَّقَت بعدَ الحربِ العالميَّةِ الثَّانيةِ تلك المبادَراتِ الَّتي أدَّت إلى الاتِّحادِ الأوروبِّيِّ اليومَ، تلك العمليةُ - فيما بعدَ عامِ ٨٩ ١٩م- عرفَت نوعًا مِن النُّمُوِّ السَّريعِ معَ اتِّساعِ بُلدانِ الشَّرقِ والشُّيوعيَّةِ السَّابقةِ.

ولقد كانَ بَطَلُ هذه العمليَّةِ شخصًا أوروبيًّا عظيمًا ألا وهو «رومانو برودي»، أحدُ الشَّخصيَّاتِ البارزةِ، والَّتي مِن الأفضلِ أن تُحدِّثَنا عن قارَّتِنا، والَّذي يُشرِّفُنا بحضورِه، شاهدًا على رؤيةِ أوروبَّا متَّحِدةً ومُنفتِحةً للتَّواصُلِ والالتقاءِ.

إنَّ الغربَ الأوروبِّيَّ -وكذلك الاتِّحادُ الأوروبِّيُّ- لا يُعَدُّ فقط حقيقةً غنيَّةً بقوَّتِها الاقتصاديَّةِ، بل أيضًا موضِعًا فريدًا في عالَمِ الآثارِ والفنِّ، والتُّراثِ الثَّقافيِّ، والمواردِ البشريَّةِ والحضاريَّةِ.

إنَّ تاريخَها الطَّويلَ يَنحدِرُ مِن أصولٍ دينيَّةٍ، هي الأصولُ المسيحيَّةُ، والَّتي حمَلَها إلى قارَّتِنا الحوارُ بينَ القادمِينَ مِن المشرقِ، والَّتي نَمَت في عشرين قرنًا مِن التاريخِ.

إنَّ هذا التَّاريخَ المسيحيَّ لم يَنتهِ، وإنَّما قد تمَّ التَّعايُشُ فيه في العصورِ الأخيرةِ، كما يُبيِّنُ ذلك استشهادُ المسيحيِّينَ في أوروبَّا تحتَ السِّيادةِ الشُّيوعيَّةِ في القرنِ العشرينَ.

تمتلكُ أوروبَّا رُوحًا دينيَّةً ذاتَ رُوحانيَّةٍ، هذه الرُّوحُ الدِّينيَّةُ تَدفَعُ وتَحُثُّ على الخروجِ وعلى الالتقاءِ بالآخَرِ، والمجتمعُ الدينيُّ الأوروبيُّ يحتوي على تركيبتِهِ الجديدةِ، والتي يُمثِّلُها المهاجرون المسلمون؛ فأوروبَّا ليسَت علمانيَّةً مطلَقةً كما يُدَّعَى في بعضِ الأحيانِ.

كيفَ كانَ مِن الممكِنِ النِّضالُ في وجهِ النِّظامِ الشُّيوعيِّ البولنديِّ بدونِ الدَّعمِ والسَّندِ مِن الرُّوحِ الدِّينيَّةِ إبَّانَ ثمانينيَّاتِ القرنِ الماضي؟

وتُعَدُّ أوروبَّا أيضًا قصَّةً تاريخيَّةً في البحثِ عن الحرِّيَّةِ، والَّتي حَمَلَتها على التَّصارعِ، ولكنَّه يُعَدُّ خُطوةً حاسمةً لاحتواءِ القارَّةِ.

وكما يَتحدَّثُ الفيلسوفُ الإيطاليُّ «بينديتو كروتشا» في النِّصفِ الأوَّلِ مِن القرنِ العشرينَ عن التَّاريخِ الأوروبيِّ؛ كتاريخٍ يبحثُ عن الحرِّيَّةِ، ولكنَّ العالِمَ

السِّياسيَّ الفَرَنسيَّ «ريموند آرون» اللِّيبراليَّ العقيدةِ في آخِرِ محاضرةٍ له في المَعهَدِ الفَرَنسيِّ، قد لاحظَ في عامِ ١٩٧٨م، في شأنِ الأزمةِ الدِّيمقراطيَّةِ اللِّيبراليَّةِ كيفَ أنَّ غيابَ الحقيقةِ المُشتَرَكةِ قد جَعَلَ الحرِّيَّةَ بحاجةٍ إلى فكرةٍ جديدةٍ ذاتِ طابَعٍ مُشترَكٍ.

ليسَ مِن الممكِنِ أن يُفهَمَ الغربُ إذا لم تُفهَم صعوباتُهُ، والتي هي أحيانًا ثقافاتٌ متناقضةٌ عن الحرِّيَّةِ، والتي تمثِّلُها صورةُ البطلِ اليونانيِّ السَّاخِرِ «أوليس» «Ulysses»، والذي يجسِّدُ البحثَ عن الحرِّيَّةِ.

إنَّ رُوحَ أوروبَّا تَدفَعُها وتَحُثُّها على الخروجِ وعلى الالتقاءِ معَ الآخَرِ، ولسنا هنا اليومَ نجتمعُ للِّقاءِ بينَ الأديانِ، ولكن أيضًا كلقاءٍ بينَ المجتمعاتِ الثَّقافيَّةِ والحضاراتِ، حيثُ يلعبُ فيها الدِّينُ دَورًا محدَّدًا، فلقد تَحدَّثنا عن حواراتٍ ثقافيَّةٍ، وأعتقدُ أنَّها فرصةٌ مناسبةٌ لذلك.

إنَّ العالَمَ بعولمتِهِ يُنتِجُ تأثيرًا يَصيرُ خادِعًا، كلُّ شيءٍ يَبدو مُتضارِبًا بقوَّةٍ وبفضلِ الإعلامِ، ووسائلِ الإعلامِ المختلفةِ، وبفضلِ التِّجارةِ المتبادِلةِ، ولكن معَ كلِّ هذا، فالشُّعوبُ تَتباعَدُ بهدفِ الحمايةِ وبهدفِ التَّميُّزِ.

إنَّ الابتعادَ يَعني في حدِّ ذاتِهِ اتِّساعَ المسافاتِ، وسوءَ الفَهمِ والجهلِ، حتَّى وإن كانَ مجتمعُنا يسيرُ بمنهجيَّةٍ متميِّزةٍ، ويَكفينا فقط أن نُنشِئَ رابطَ تَواصُلٍ بينَ الأحكامِ والمعتقَداتِ السَّائدةِ في المجتمعِ الشَّرقيِّ تِجاهَ الغربِ، والعكسُ كذلك، المعتقَداتُ السَّائدةُ في الغربِ تِجاهَ الشَّرقِ والإسلامِ في العالَمِ الشَّرقيِّ.

إنَّ الشَّرقَ والغربَ مختلفان في تاريخِهما القديمِ والحديثِ، وكذلك في عَلاقتِهِم معَ الدِّينِ وأحداثِهم السِّياسيَّةِ، مختلفانِ في الحضارةِ وفي عِلمِ الأجناسِ، ومعَ كلِّ ذلك فإنَّ الاختلافَ لا يَمحُو أبدًا الكثيرَ الَّذي يَجمَعُنا: الجغرافيا، التَّقاربُ عبرَ البحرِ الأبيضِ المتوسِّطِ، التَّبادُلاتُ التَّاريخيَّةُ والأصولُ ومسئوليَّتُنا نحوَ المستقبلِ.

نحن معنيُّون بالتَّحدُّثِ مع بعضِنا البعضِ بشكلٍ مكثَّفٍ وعاجلٍ، ملتزمون؛ وأعني بهذه الكلمةِ أن نَتحدَّثَ عن الجغرافيا وعن التَّقارُبِ، وعن التَّحدِّياتِ العنيفةِ والعدوانيَّةِ، وعن النِّضالِ ضدَّ الجهلِ، وعن الحاجةِ لبناءِ عالَمٍ أَمْثَلَ.

إنَّ المشرقَ العربيَّ المسلمَ والغربَ الأوروبيَّ هما في العديدِ مِن الرُّؤَى أبناءٌ لنفسِ الأصولِ، ولكنَّ التَّاريخَ قد اتَّجَهَ إلى مُنحنًى ومعنًى آخَرَ.

تُراوِدُني الآنَ قصَّةُ أبناءِ إبراهيمَ؛ إسحاقَ وإسماعيلَ اللَّذينِ ذُكِرا في التَّوراةِ وفي القرآنِ، واللَّذينِ قد كَبِرَ كلٌّ منهما بعيدًا عن الآخَرِ.

ففي سورةِ إبراهيمَ: [الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء] [إبراهيم: ٣٩]، كما تؤكِّدُ التَّوراةُ: «إسماعيلُ وإسحاقُ وهم أبناءٌ لأبٍ واحدٍ، مُلزمَينِ بالكِبَرِ بعيدًا، كِلاهُما أبناءُ إبراهيمَ، كثيرٌ هو الَّذي يَجمَعُهُم، على الرَّغمِ مِن أنَّ التَّاريخَ قد فَرَّقَهُم».

لَكَم يَسُرُّني أن أرى الحوارَ بينَ الشَّرقِ والغربِ، كما اللِّقاءِ بينَ إسماعيلَ وإسحاقَ اللَّذينِ كانا قد افترقا، ولكنَّهم قد اكتشفوا أنَّ كثيرًا مِن الرَّوابطِ تَجمَعُهُم، وبالأخصِّ فهُم يَشعرونَ -على الرَّغمِ مِن الاختلافِ فيما بينَهم- بحاجةٍ إلى الحديثِ والالتقاءِ ببعضِهم البعضِ.

* * *